مقياس: النقد العربي المعاصر

السنة الثانية لسانس / تخصص لسانيات

إعداد: الأستاذة عبلة معاندي

المحاضرة الأولى: إرهاصات النقد العربي المعاصر

الخطاب النقدي العربي المعاصر/ مسار التحولات والتحديات:

-الرافد الغربي

لا يمكن استيعاب طبيعة التحولات التي اجتابت الخطاب النقدي العربي المعاصر باتجاهاته المختلفة وأطروحاته المتعددة ولا الإحاطة بأهم معالم المرحلة النقدية المعاصرة بانجازاتها وتحدياتها المعرفية ،دون العودة إلى المؤثر الغربي باعتباره أحد أهم العوامل المؤثرة في تكوين الخطاب النقدي العربي، حيث أن الاتصال مع الغرب –أصبح مع الزمن- قانونا داخليا مضمرا في تطور الحركة الأدبية والنقدية العربية ازدهارا وانتكاسا.

والواقع أن المتتبع لسيرورة التحولات التي شهدها الدرس النقدي الغربي في العقود الأخيرة، يلحظ أنه عرف طفرة نوعية في ظل الثورة المعرفية غير المسبوقة التي شهدها القرن العشرون مع تسارع وتيرة التقدم العلمي والتكنولوجي والصناعي، وعلى وقع المتغيرات والمستجدات المتلاحقة المتراكبة، انبثقت الحاجة إلى مراجعة أساليب التفكير السائدة ومجاوزتها. هكذا شهد الغرب إرهاصات تحول عميق في بنيته المعرفية ما لبث أن طال مناحي النقد الأدبي بوصفه مجالا معرفيا حيويا كان ولا يزال في حالة تماس مستمر مع العديد من العلوم الإنسانية والاجتماعية " وكل علم من هذه العلوم يتطور على نحو تصاعدي ، وكل تطور يؤدي إلى تصاعد إيقاع ما يؤدي إليه، أو يتوصل إليه من تقدم متواصل، وذلك في متتالية متزايدة التسارع الذي يضيف أنواعا جديدة من العلم ...خصوصا حين نضع في اعتبارنا شبكة العلاقات البينية القائمة أو المحتملة التي تدخل فيها النظريات النقدية مع غيرها من العلوم ، والتي تتولد عنها أفكار ومبادئ واصطلاحات لا تكف عن التجدد والتراكم في آن.

المنعطف اللغوي

ولقد دشنت النظريات النقدية مرحلة فارقة في مسارها التاريخي، وذلك مع التحول الكبير في النظرة إلى اللغة على أيدي فرديناند دي سوسير في العقد الأول من القرن المنصرم، ثم تواصلت مع كشوف الشكلانيين الروس وأعمال ميخائيل باختين المبهرة في العشرينيات وإنجازات مدرسة براغ النقدية و استقصاءات مدرسة كمبريدج الانجليزية ومدرسة فرانكفورت الألمانية في الثلاثينيات ، وكشوف لوكاتش ومدرسة جينيف و مدرسة النقد الجديد الأمريكية في الأربعينيات و جهود غريماس وبارت وجولدمان والبنيويين الفرنسيين في الخمسينيات، وصولا إلى استقصاءات التفكيكيين ومدرسة جامعة ييل الأمريكية في الستينيات و محاولات ما بعد البنيوية منذ السبعينيات والثمانينيات، وقد شكلت هذه الانجازات النقدية منعطفا مفصليا في التأسيس لمرحلة ما بعد الحداثة الممتدة إلى يومنا هذا. وقد فرض هذا التعدد والتنوع الخلاق في المشهد النقدي الغربي والعالمي من الناقد الأدبي في العالم العربي ضرورة مراجعة موقفه وموقعه ومساءلة مسلماته في مواجهة كل هذه التحديات.

هكذا، لم يكن بإمكان الدارسين العرب المعاصرين التغاضي عن الانجازات الحضارية للغرب، حيث اجتهد العديد من النقاد العرب –على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم –في تحقيق الاستيعاب الواعي لمختلف المقولات والمفاهيم والمناهج النقدية الغربية، كما عملوا على توظيف هذه المعارف في إنتاجهم النقدي وسعوا إلى إدخالها وإدماجها داخل المنظومة الفكرية العربية، فتعددت مسالك البحث وتنوعت الإشكالات المبسوطة وبرزت مفاهيم مستحدثة لم يكن للعرب بها عهد قبل ذلك.

-الحاجة إلى تجاوز النهج التقليدي :

لقد أدرك الدارسون العرب المعاصرون أن هناك حاجة ماسة إلى تجاوز النهج التقليدي في النقد ، الذي لم يعد بإمكانه مواكبة الحركة الإبداعية بتجاربها الجديدة التي تراهن على الاختلاف والتمايز، والأكيد أنه أمام التطور النوعي الذي يشهده الإنتاج الأدبي العربي في العقود الأخيرة في أشكال إبداعه وتنويع في أساليب أدائه، لم يعد سائغا التمسك بمناهج عتيقة وأجهزة نقدية مستهلكة أظهرت التجربة محدوديتها وقصورها عن استنطاق المادة الأدبية الجديدة وفك مغاليقها ، وكما يرى الباحث محمد الناصر العجيمي فإن النهج التقليدي في النقد قد استنفذ طاقته في البحث وقدم أقصى ما في وسعه تقديمه، و اتضح عجزه عن تجاوز الأحكام الذوقية الانطباعية ومعالجة الأدب بما فيه القديم خارج المفاهيم الجارية، مفاهيم الصدق والحق والأمانة في تصوير الواقع ونقله ، سواء تعلق الأمر بذات المبدع أو بالحياة الاجتماعية العامة.[1]

كان من الضروري، إذن، أن يجدد الناقد العربي طرائقه وأساليبه وأدواته وعلاقته بالإنتاج الإبداعي، بعد أن تبين مؤخرا أن "عمل الناقد ما هو إلا حوار مفتوح مع النص ، و إسهام في تسويغ جمالياته وفك شيفرته ورموزه. وهو عمل قد يكون مساويا لعمل المبدع ، أو هابطا عنه ، أو متفوقا عليه على وفق قدرة الناقد وثقافته".

بوادر التحول / معالم رؤية جديدة

يرى الباحث غالي شكري أن هزيمة 1967 شكلت نهاية رؤية شاملة في الفكر والحياة لدى جيل كامل من المثقفين العرب، هذه الرؤيا الشاملة كانت توفيقية في الأساس تقوم على الجمع بين قيمتين معياريتين مختلفتين: معيار القيمة التراثية ومعيار المصطلح الوافد، وعلى وقع الهزيمة والنكسة الحضارية ظهر جيل آخر نقيض للواقع المهزوم، جيل يؤسس لرؤيا

جديدة، رؤيا العصر الجديد . كان النقد أحد عناصر هذه الرؤيا الجديدة ، ولكن الإبداع الأدبي كان أسبق وأكثر نضجا، أما عن سبب التأخر ، فيذهب الباحث غالي شكري إلى أننا " لم نرث عن جيل العمالقة ولا عن جيل الأساتذة: القانون الأساسي لتطور التجربة الأدبية العربية و لا القوانين النوعية لتطور الكتابة المختلفة ، وفي غيبة الوعي المنهجي الذي يكتشف خصوصية تجربتنا الأدبية ، كان لزاما على النقد أن يستدرك تأخره وأن يتجاوز حالة التعثر وأن يتحرر من إسار الانطباعية والجزئية والذاتية...

وكانت أولى بوادر التحول ضمن هذه الرؤية الجديدة هو ظهور الناقد المتخصص ومحاولة الخروج من بوتقة ما يسميه شكري: "الناقد الموسوعي" أي الناقد الذي يكتب عن كل أدب بمقاييس واحدة لا تفرق بين النص الشعري والنص الروائي ... يقول الباحث محمد ميري : "لعل أولى الملاحظات لهذا التحول، هي ظهور نوع من النقاد المتخصصين في مجال الدراسات الأدبية البحتة، هذا في الوقت التي عرفت فيه المراحل التاريخية السابقة

[1] - محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1998، ص16.

ناقدا كان بمجموعة من المهام ذات الصلة بالخطاب الأدبي(...) وقد أدى هذا التخصص ، على المستوى النقدي ، إلى ظهور المبدع

المتخصص أيضا على مستوى الجنس الأدبي الواحد (الشعر-الرواية-المسرح)، وسيثمر هذا التكامل الشكلي – على الأقل-محاولة لإعادة رسم الحدود بين أنواع الخطاب الأدبي. ساعد على كل هذا، أن المشتغلين في مختلف الحقول الفنية، بدأوا يتوافدون قادمين من بعض الجامعات الغربية التي مكنتهم من شهادات عليا، وأخرى أكاديمية متخصصة، ونبهتهم إلى مناهج نقدية تسمح لهم بمقاربة النصوص الأدبية العربية من زوايا نظر مخالفة لما هو سائد ومتداول آنذاك."

هكذا، أصبحت العقلانية العلمية تجد لها أنصارا في داخل الجامعات العربية، وفي ظلها كان التعامل مع فكر الحداثة يمضي قدما إلى الأمام، فتكون في أجواء الثقافة الأكاديمية، تيار من طلبة الدراسات العليا ومن عدد من الأساتذة من الذين باتوا يؤمنون أكثر من ذي قبل بضرورة تجديد النظرية النقدية عبر الانفتاح الواسع على النظريات الجديدة التي ظهرت في الغرب بعد لسانيات دي سوسير. وفعلا، "كلما اتجهنا نحو نهاية السبعينيات، اتضحت ملامح نظرية تسعى إلى تكوين معرفة داخلية عميقة بالنص الأدبي، بوصفه نسيجا من العناصر اللسانية،على نحو ما تمثل تطبيقا عند حسين الواد(1972)، ومحمد رشيد ثابت(1972)، وخالدة سعيد(1979)، وكمال أبو ديب(1979) ومحمد بنيس(1979). لا شك في أن هذه التطبيقات البنيوية أوضحت تغييرا في النظرة إلى مفهوم الأدب من كونه مرآة ذاتية أو اجتماعية إلى كونه: جوهرا لسانيا.

وبذلك انتقل التفكير النقدي العربي إلى مرحلة جديدة، اقتضت تغيرا في المرجعيات الفكرية ، وسعيا إلى إيجاد مقتربات ذات أصول لسانية، ونظرية، تقترن على نحو مباشر بمنجزات نظرية المعرفة. وهي مرحلة أحدثت تغييرا في مفهوم النقد نفسه، من كونه تفاريق من النظرات والخطرات والملاحظات إلى كونه: علما، أقام حدا فاصلا بين تذويت القراءة، وموضوعية أو علموية المقدمات والنتائج التي تستند إليها تلك القراءة."

بيد أنه، وعلى الرغم من الانجازات والمكاسب التي حققها النقاد الذين وضعوا اللبنات الأولى لمثل هذا التحول النقدي، إلا أن النسق الثقافي الموروث كان حاضرا بشدة وكان يرسم الحدود التي لا يجوز لمؤثرات المثاقفة أن تتجاوزها، وظل ينظر إلى النظريات الأجنبية، لا من حيث بعدها النظري كنظرية، ولكن من حيث بعدها المرجعي لأنها أجنبية. ويتمادى العقل الثقافي العربي بنعتها في هذه الحالة على أنها منافية بخصوصيتها، ومهددة لهويتنا ولوجودنا. وقد عرقل هذا النسق عملية الاستيعاب والتمثل الجاد لهذه النظريات، كما حال دون القيام بعملية امتصاص وتحويل لجوهر النظريات، وتوظيفها بالشكل المجدي. وكما يرى الباحث محمود ميري ف"إن النسق الثقافي العربي المتولد عن المقدس الديني واللغوي، لم يكن يستسيغ مثل هذا التعدد المنهجي الذي يشهده الحقل النقدي، لأنه كان يقوم على الروح الوحدانية التي تقصي فكر الاختلاف والتعدد. و في ظل ثقافة مسكونة بالروح الوحدانية، ظل الاعتقاد السائد هو أن الوصول إلى نوع من الائتلاف، والتشابه، والاتصال لدى مختلف القراء، وبشتى المناهج والمقاربات، هو المهمة الموكولة للنقاد والدارسين.